

## الفن الإسلامي

في حالة تُعدّ من أبرز الحالات الفنية التي مرت على حضارة معينة، اكتسب الفن الإسلامي سمته واسمه الفني من موروثها الديني، وعلى عكس ما يقال أن الفن ليس له ارتباط بالقيم والمفاهيم الدينية، كان الفن الإسلامي قد ارتبط بالدين منذ ظهوره، بينما نجد الفنون التي سبقت في الحضارات القديمة ترتبط بالأساطير الخرافية تارةً، وبطقوس ومعتقدات أخروية (حياة ما بعد الموت) وبتمجيد للملوك والعظماء والحكام تارةً أخرى. بينما يختلف الأمر كلياً في الفن الإسلامي لأن الإسلام حينما جاء نظم الجانب الروحي للعبادات ونظم الجانب الحياتي للإنسان وكذلك نظم بقية الجوانب الأخرى للحياة. والإسلام قدم تصوراً كاملاً شاملاً عن الألوهية والكون والحياة والإنسان والمجتمع تُردّ إليه كافة الفروع والتفصيلات وترجع إليه كل أنواع الأمور الفطرية وتشريعاتها المحدودة، بل وعبادات الإنسان وتعاملاته التي صورت تصوراً شاملاً لا يحتمل التأويل، أو الارتجال، لدرجة أنه لا يحل مشكلة بمعزل عن كافة المشكلات الأخرى. فُدم هذا التصور الكامل والشامل من خلال المصدرين المهمين في الدين الإسلامي وهما: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. وهذا ما يتوافق مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه"<sup>(1)</sup>. وحينما نراجع أصول الإسلام ومقوماته، نجد أن الإسلام قد وضع نظاماً اجتماعياً دقيقاً قائماً على الأسس الإلهية الثابتة والمتغيرات الإنسانية والكونية التي لا تتناقض مع الإسلام نصاً أو روحاً. ومن هنا خرج الفن الإسلامي من بين الثوابت التي أرسيت، ومن المتغيرات الإنسانية المطابقة لشرعية الخلق في الوجود، لأنه لا يأتي إلا بشيء من القوى التي تستحدث الأشكال النامية والمتطورة والمتنامية، وهي بالتالي أيضاً سر انفعال النفس بجمال الخالق والتكوين في الكون. (النجدي، 1996: 25).

ومن أكثر ما يلفت الانتباه إلى الفن الإسلامي هو الطريقة التي اتبع من خلالها الأسلوب المحدد والتام، صاحب الذخيرة المتكاملة من التصاميم والنظم الهندسية المتميزة والشديدة في الدقة لتصبح لها فيما بعد فكرة واحدة مرتبطة بالعقيدة وجوهرها وبالأسس وثوابتها، التي لا تحيد عن المفاهيم العامة للفن الذي أوجد أرضيته الصلبة منذ أن كتب الله للدولة الإسلامية الاستقرار بعد حروبها وفتوحاتها العظيمة للبلاد التي كانت لها جذور فنية عميقة. وبالرغم من الاختلاف الكبير بين المناطق الإسلامية الشاسعة من حيث البعد والقرب عن مركز السلطة إلا أن التنوع كان كثيراً جداً بغض النظر عن اختلاف الزمان والمكان. وعوضاً عن ذلك بقي الفنان المسلم مرتبطاً بالنموذج الذي أقره المبدع والصانع قديماً مع سعيه الدؤوب نحو الجديد والتجديد حتى يثير الإعجاب ويلفت الانتباه لما يقوم به، مثال ذلك (إذا تبين الفنان المسلم لخط معين في الزخرفة، تجده بعد فترة معمم في كافة الأقطار من الهند وحتى الأندلس دون تغيير). (Rice, 1964:3).

وبناءً على ما سبق يمكن القول أن " الفن الإسلامي جاء يقر الفن الذي يتفق مع الفطرة السليمة من حضارات الأمم السابقة له، وعندما اكتمل الدين الإسلامي وتمت نعمة الله على المسلمين، صار الفن الإسلامي هو الصورة المثلى، التي ينهل من معينها الذي لا ينضب أجيال عصورنا الحاضرة ". ولذلك فإن الفن الإسلامي الذي تأخر ظهوره عن فنون الأمم التي سبقت الإسلام فعلياً إلا أن جوهره كان سابقاً، لأنه استمد أشكاله وقوانينه من المبادئ القرآنية، وكذلك الصورة الأزلية التي تمثلت في نتاج إبداع القدرة الربانية ما هي إلا الملهم الأول لعين الفنان المسلم وكذلك الموجة العصرية لبصيرته وبصره. (النجدي، 1996:30).

#### أ- ظهور الفن الإسلامي ونشأته وتكوين شخصيته:

كان ميلاد الفن الإسلامي في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، حيث ظل ينمو ويتوسع حتى بلغ بعد فترة عنفوان شبابه في القرنين السابع والثامن الهجري، (الثالث عشر والرابع عشر الميلادي)، ثم دب فيه الضعف والهرم منذ القرن الثاني عشر الهجري، (الثامن عشر الميلادي) بعد مرحلة تأثر المسلمين بمنتجات الفنون الغربية وازدياد إقبالهم عليها مع تركهم لموروثهم الفني العريق. والفن الإسلامي هو الفن الأوسع والأكثر انتشاراً

والأطول عمراً (باستثناء الفن الصيني) حيث يمتد الفن الإسلامي من " الهند وآسيا الوسطى شرقاً إلى الأندلس والمغرب الأقصى غرباً، ومن حوض الطونة وإقليم القوقاز وصقلية شمالاً إلى بلاد اليمن جنوباً". (حسن، 1980: 6-7).

وقد تبلورت شخصية الفن الإسلامي بعد احتكاك مباشر بفنون الأمم التي وجدت قبله مثل: شعوب (بلاد الشام، وآسيا الصغرى، بلاد الهند والسند، آسيا الوسطى، بلاد فارس). وكل ما وجد عند هذه الشعوب من تراكيم حضاري وإرث فني أصبح تحت يد المسلمين بعد فتحهم لتلك البلاد. وبعد استلزامهم لتلك الفنون استطاعوا أن يفرضوا رؤيتهم للفن الجديد الذي اشتق اسمه من اسم الإسلام واقترب به، إلا أن هناك خمسة عناصر ساهمت في تكوين شخصية الفن الإسلامي وهي:

- 1- العنصر الأول: الشكل الموحد الذي تضمن الشكل الثابت ثبات الإيمان ومنه كان الانطلاق والتفاهم وكان هو أيضاً بمثابة اللغة التي استعملوها للتفاهم فيما بينهم.
- 2- العنصر الثاني: العامل الجغرافي حيث أسهم في تكوين شخصية الفن الإسلامي لأنه انتشر في منطقة واسعة جداً (تمتد من خليج البنغال لتصل إلى المحيط الأطلسي<sup>(1)</sup>).
- 3- العنصر الثالث: " فرض الإسلام الشروط الدينية والعقائدية على الفن، فإن شكلاً اجتماعياً محدداً ونظاماً حياتياً قد تكون بتأثر شكل الفن الجديد ومن مبادئ العقيدة الإسلامية".
- 4- العنصر الرابع: يتوحد الفن الإسلامي بفعل الأصالة الحضارية، وفعل العقيدة وبتأثر العامل الجغرافي.
- 5- العنصر الخامس: الوحدة الداخلية للفن الإسلامي، وهي الوحدة التي تجلت فيها جمالية الفن المتميزة بهذا العنصر لدرجة أن لا يختلف فيها أحد من مؤرخي الفن الإسلامي أو غيرهم. (البهنسي، 1986: 39-40)

وحينما انتشر الإسلام في منطقة شبه الجزيرة العربية التي أخذت طابع الحياة الصعبة في البيئة الصحراوية القاحلة، وبدورها فرضت على سكانها نوعاً من المواهب الفطرية والأحاسيس المتميزة والبسيطة السهلة. فكانت هناك بواذر بسيطة من الفنون التي عرفها العرب مثل (الشعر، الخطابة، النثر، فنون الصيد والمبارزة) وغيرها من الفنون التي تلاءمت مع بيئتهم الصحراوية. (الششتاوي، 19:1988).

ومن جهة ثانية نجد أن منطقة شمال الجزيرة وجنوبها شهدت حضارات عربية عريقة ظهرت قبل الإسلام واستمرت حتى شملها الفتح الإسلامي وكانت تلك هي الأساس الذي وقف عليه الفن الإسلامي ومنه انطلق نحو العلياء. وعلى سبيل المثال حينما تم الفتح للمناطق الشمالية من الجزيرة العربية كانت هنالك بقايا لقبائل قديمة مثل:

(اللحيانية والصفوية)، وفي جنوب الجزيرة وجدنا بقايا (لمملكة الفاو) الغنية بالفنون والآثار التي نفذها العرب في مملكتهم، ونجد أيضاً بقايا موروثة فنية من تركت الممالك السابقة لبلاد اليمن مثل (سبأ، حمير، كندة). كانت بلاد العرب محاطة من جهة المناطق الشمالية، والشمالية الشرقية بقوى نافذة قوية تتمثل في إمبراطوريتي (الفرس والروم)، اللتين كانتا تتربصان بتلك الدولة الناشئة حتى لا تقوم لها قائمة بين قوى العالم في تلك الفترة. إلا أن إرادة الله كانت أقوى في تمكين المسلمين من فتح تلك البلاد والاستيلاء عليها وإعطاء الأمان لأهلها (الذميين)<sup>(1)</sup> وغيرهم من الوثنيين، وبعد ذلك تعايش المسلمون معهم على أرض واحدة وتحت نظام عادل يكفل العدل والمساواة بين كافة شرائح المجتمع. وكما نعرف أن أي نظام حكم يأتي على جماعة معينة في بلاد ما لا يعني ذلك انسلاخهم عن موروثة الفينة القديمة، ولا يعقل أن نحاربهم ونمنعهم من ذلك، بل كانت الفكرة الأفضل أن يتم توجيههم نحو فن أسمى؛ منطلق من أسس وثوابت دينية غنية بالفكر والفلسفة المستمدة من روح الشرائع الإسلامية. لذلك خرجت الفنون من لدن سكان المناطق التي كانت خاضعة للإمبراطوريات القديمة مثل (الفارسية، الرومانية، البيزنطية) بعد مرحلة استخلاص ما يناسبهم في فنونهم ورفض العناصر الفنية الأخرى التي لا تتناسب مع الفن



### 3- ويعرفه (عفيف البهنسي) بقوله:

- " الفن الإسلامي: هو الفن الذي اكتسب وجهاً جديداً لا يمكن به التعرف على أصوله، ويكفي بان هذا الفن مرّ عليه مائة عام من الزمان كي يترسخ في أعمال لم يعد بالإمكان نسبتها للفنون القديمة التي أغنته، وعبر القرون ابتعد أكثر فأكثر عن المؤثرات التي أحاطت بمقدمه إلى العالم.

- الفن الإسلامي: هو الصيغة الحضارية الإبداعية التي تنتسب إلى تلك العقيدة الواضحة فكراً وتطبيقاً، والتي تجلت مكتوبة أو ممارسة، واستمرت متنامية دون أن تخرج عن أساسها العقائدي وفلسفتها الواسعة التي لم تصل فلسفة أخرى إلى حدود اتساعها وانتشارها. ونسبة هذه الفنون إلى تلك العقيدة، أعطاهما طابعاً ثابتاً واضح الشخصية وجعلها موحدة باستمرار وتتجلى هذه الوحدة في الشكل والمضمون مهما تباعدت المسافات ومهما توالى الأحقاب ". (البهنسي، 1986:7).

### 4- ويعرفه (أنور الرفاعي) بقوله:

- " الفن الإسلامي ارتبط بفكره من حيث مطابقته لقوانين طبيعة الخلق والتكوين الكوني، ومن المؤكد أن الفن والفكر الإسلامي استقيا من معين واحد، ألا وهو الطبيعة التي وهبها الله للناس أجمعين.

- الفن الإسلامي هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان.

- الفن الإسلامي هو الفن الذي يهيئ اللقاء الكامل بين الجمال والحق.

- الفن الإسلامي يعني جميع الجهود التي بذلها العالم الإسلامي خلال عشر قرون على الأقل في التعبير عن الجمال وصنع الأشياء الفنية.

- الفن الإسلامي ذو شخصية قائمة بذاتها، و ذو تاريخ خاص وميراث ومميزات معينة واضحة ". (الرفاعي، 1988:9-10).

### 5- كما يعرفه (عمر النجدي) بقوله:

- " الفن الإسلامي فن واقعي تطبيقي يلبس كل أداء أو مرفق من مرافق الحياة ثوب الجمال الذي أضفاه الله على الكون، وأن خصوصيته نابعة من موقف الإسلام نفسه من الحياة بوجه

عام ومن الفن بشكل خاص.

- الفن الإسلامي صياغة قديمة قدم الزمان حديثة حديثة اليوم.

- الفن الإسلامي فن التكامل لأنه صادر عن فكر وعقيدة التوحيد، وتكامله مستمد من تكامل الفكر الصادر عن أمر الله.

- أن جوهر الفن الإسلامي سبق تاريخ وجوده بزمن بعيد تحلى بالفطرة البشرية الأولى". (النجدي، 1996:32).

واني ألاحظ من خلال التعاريف السابقة تركيز المعرفين للفن الإسلامي على ارتباطه بعدة أمور منها: علاقة الفن بالعقيدة، علاقة الفكر الإسلامي بالفن، علاقة الموروث الحضاري الإسلامي بالفن. الارتباط الوثيق ما بين الإسلام والفن من حيث إعطائه الصبغة الإسلامية تحت اسم (الفن الإسلامي) مع ملاحظة الالتصاق الروحي والعقائدي ببعضهما البعض، بينما نجد الفنون السابقة ارتبطت بالأساطير والأمور الحياتية وما بعد الموت (البعث). لذلك أستطيع القول أن الفن الإسلامي هو:

ما أبدعه الفنان المسلم من خط أو زخرفة أو عمارة تصب في رقي الحضارة الإسلامية، مستمدة أسسها وقيمها الروحية من المصادر الأساسية للدين الإسلامي، حتى يكون فناً خالصاً نقياً من شوائب الفنون السابقة.

وفيما سبق كان الحديث بخصوص تعاريف الفن الإسلامي، أما من حيث التسميات التي أوردها الباحثون في الفن الإسلامي؛ فقد وردت مجموعة من التسميات للفن الإسلامي منذ أن بدأ الفن الإسلامي بالظهور مع مطلع القرن الأول الهجري (القرن السابع الميلادي)، حيث حاول الكثيرون من المهتمين به أن يضعوا له هوية أو اسماً محدداً. وكان ذلك من باب إكساب الهوية العربية الإسلامية لهذا الفن العريق ومزج الشعوب التي آمنت بالديانة الإسلامية تحت هوية الفن الإسلامي. ومنذ أن اكتسبت الفنون الإسلامية مكانتها الرفيعة بين الفنون الأخرى، حاول بعض المستشرقين والأثريين الغربيين أمثال وضع تسمية لهذا الفن العريق.

ومن أشهر هذه التسميات المتداولة فيما بين الباحثين مثل (زكي محمد حسن) للفن الإسلامي تسمية (زكي محمد حسن) إذ يقول:

1- الفن الشرقي (Seracenic art): وهذه التسمية أصلها يوناني، وردت كلمة (Saraceni) عند قدماء الإغريق وكانوا يطلقونها على البدو الذين كانوا يتوافدون على بادية الشام وينزلون بها بقصد الاستقرار المؤقت أو المبادلة التجارية مع سكان المنطقة. ولعلمهم يقصدون بالتسمية منطقة الشرق أو من يقطن بالشرق ويقال له (شرقي) وبعد ذلك اتسع المدلول اللفظي ليشمل جميع سكان شبه الجزيرة العربية وكذلك أطلق اللفظ على سكان الشرق الأدنى من المسلمين أثناء الحروب الصليبية التي حدثت في بلاد العرب.

2- الفن المغربي (Merish art): وهي تسمية لا تصلح إلا للفنون التي ظهرت وازدهرت في بلاد المغرب العربي (المغرب، تونس، الجزائر، ليبيا، موريتانيا) ومنطقة الأندلس. وكلمة (Merish) مشتقة من كلمة (Maurt) الرومانية وكانوا يقصدون بها أهل المغرب العربي آنذاك وعرفت تلك الكلمة باسم (موريتانيا)، وفي العصر الحديث حمل هذا الاسم دولة في منطقة المغرب العربي تحت اسم (موريتانيا).

3- الفن العربي (Arabic Art): وهي تسمية يقصد بها فنون العرب خاصة دون النظر إلى الفنون التي ظهرت لدى المسلمين بعد أن فتح العرب البلاد المجاورة لجزيرتهم ونشروا فيها الإسلام واللغة العربية. ومن المعروف أن العرب لم يكن لديهم فناً خالصاً إلا في نطاق محدود وفي بعض المناطق مثل جنوب جزيرة العرب (حمير، سبأ، كندة، مملكة الفاو) وكذلك في شمال الجزيرة العربية مثل (الآراميون والأنباط). وكما نعرف أن الفنون التي ازدهرت في بلاد المسلمين ما كانت إلا تراثاً وفنوناً من حضارات مختلفة وجدها العرب حينما فتحوا تلك البلاد فما كان منهم إلا التشجيع لها والحث على التطوير فيها بحيث لا تتعارض مع الدين الإسلامي.

هنا لا أستطيع أن أتفق مع هذه التسمية لأنها تخرج فنون أمم من المسلمين أمثال (الفن الفارسي، الفن التركي، الفن الهندي) من دائرة الفنون التي امتزجت مع فنون العرب وأخرجت فناً راقياً ذا هوية جديدة.

4- الفن المحمدي (Mohammedan Art): نسبة إلى (النبي محمد صلى الله عليه وسلم) باعتبار أن من أطلقها يقصد بها تثبيت فن خاص بالرسول ومن بعده لأمته على غرار الفن الذي نسب إلى (المسيح عليه السلام) ولمن تبعه من بعده.



بيد أن هذه التسمية تشكل نفوراً وابتعاداً عن مضمون الفن الإسلامي لأنها تتسبب إلى شخص بعينه بينما المسلمون ينتسبون إلى أمتهم الإسلامية، ومن باب التعقل في إثبات النسبة وجب علينا أن نقدر الفن لفنه ولمن يعمل به ثم ننسبه لمن هم أهلٌ لنسبته لهم.

ومن جانب آخر كان جُلَّ اهتمام النصارى في فنهم هو اتخاذهم لتصاوير تمثل شخصية (المسيح عليه السلام) وأمه الصديقة (مريم عليها السلام) وكذلك أبرز الشخصيات التي أتت من بعدهما ممن أخذوا زمام القيادة في مراكز العبادة وعرفوا بالرهبان أو القديسين أو غيرهم. والعكس تماماً لدى المسلمين حيث لم نجد أي تصاوير على مر التاريخ الإسلامي تمثل شخصية الرسول أو الخلفاء الأربعة أو من أتى من بعدهم بمجدون ويعظمون. والثابت عند المسلمين كراهية التصاوير لذوات الأرواح.

ومن هنا كانت الانطلاقة نحو كل ما هو مجرد من الأرواح والاتجاه نحو الأشكال البنائية والهندسية والحروف العربية. ولذلك أرى أن هذه التسمية لا تليق بفن عريق له أسسه واستقلاليته عن الفنون الأخرى بهوية خاصة به استمدتها من تعاليم وقيم دينية.

5- الفن الإسلامي (Islamic Art): نسبة إلى الدين الإسلامي الحنيف الذي وحد بين جميع أتباعه من شتى المنابت والأعراق، ووحد كافة الألسنة تحت اللسان العربي الذي يقرأ به القرآن، ويتلفظ بالأحرف العربية حتى لو لم تكن هي لغته الأم.

وكما هو معروف فإن الإسلام الذي أزال العصبية الجاهلية، وأخى بين المهاجرين والأنصار، وعفى عما اقترفه المسلم قبل إعلان إسلامه كان حرياً نسبة ابتكاراته وإبداعاته إلى أمته. ولأنه في ظل عصر الإسلام ازدهرت الفنون الإسلامية وترعرعت في ظل من اهتم بها، لأنها مثلت الجانب السامي من الحضارة الإسلامية، وبها كان الخلفاء يتباهون أمام الأمم التي عاصرتها والتي أتت بعدها برقي فنها وحسن إخراجها وخلوها من شوائب الفنون التي سبقتها. ومن هذا المنطلق أرى أن هذه التسمية أشمل وأعم لتمثل كافة المجتمعات الإسلامية بعربها وعجمها حتى تتحقق رسالة الإسلام تحت لواء الأمة الواحدة. (وأن هذه أمتكم أمة واحدة).



### ج- أنواع الفنون الإسلامية:

للفن الإسلامي أنواع كثيرة من الفنون الصغيرة والكبيرة ، وحتى يسهل علينا الوصول إلى فن الزخرفة رأيت من الأفضل أن أتبع التسلسل المتعارف عليه ما بين المؤرخين والمهتمين بالفن الإسلامي وهي كالتالي:

أ- فن العمارة الإسلامية.

ب- فن التصوير والرسم.

ج- فن الزخرفة.

د- فن الخزف.

هـ- فن المنسوجات.

و- فن صناعة السجاد.

ز- فن النقش على الخشب، العاج، العظام.

ح- فن التحف المعدنية.

ط- فن صناعة الزجاج والبلور.

ي- فن النحت على الحجر والجص والجبس.

ك- فن الفسيفساء.

ل- فن الخط والتذهيب والتجليد. (حسن، 1980: 657-670).